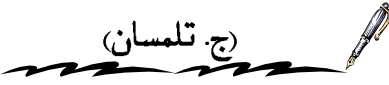


التناص في رسالة "الضب" للبشير الإبراهيمي

أ.د. عبد الجليل مرتاض

(ج. تلمسان)



1- التناص

1-1- كتابات الإبراهيمي الأدبية متناصّة بطبعها

بصرف النظر هنا عن الخوض في مفهوم التناص خوضاً استطرادياً طويلاً خشية على أنفسنا من صرفنا عمّا نحن بصدده، فإن البشير الإبراهيمي من أكثر الأدباء والكتاب الذي جرفهم تيار التناص جرفاً، بارزاً في نصوصهم الواحدة تلو الأخرى، فنصوص البشير الإبراهيمي بجميع أصنافها الجنسية لا تكاد تخلو خلوا صريحاً أو تلميحاً مما داخل لاحقها بنصوص سابقة، وفي جميع المستويات الإفرادية والتركيبية والمعاني البعيدة، والإشارات القرية سواء شعر بذلك قارئها إذا كان له حظ من ثقافة لسانية وأدبية ولغوية... وتحصيل لتون شعرية، وأراجيز، وأقوال العرب الماثورة... أم لم يشعر إذا كانت ثقافته بسيطة أو سطحية، وأنا لا أدعي لنفسي ما لا أملك، لأصنّف نفسي من المخطوطين أو الموسوعيين، ولكنني سأستعين بما يختلج في صدري من معطيات لغوية وأدبية تتفاعل قراءتي هذه بها، وإذا ما أفلت معطى أو أكثر، ولا أشك أدنى شك في ذلك، فإن الإمام بظاهرة الإماماً أوسع خير من أن تنفلت كلها منك.

1-2- متى يتناصّ الإبراهيمي؟

أجل، إن التناص ظاهرة من الظواهر الأدبية واللغوية والأسلوبية والبلاغية والجمالية للنصوص الفنية والإبداعية، فضلاً عن المقالات، والمطاريحات،... عند البشير الإبراهيمي، ومما لاحظته أن هذه الظواهر التناصية تكون أكثر تصريحاً، إذا خاطب العامة، وأبعد تلميحاً، إذا خاطب الخاصة، كما هو الحال هنا في مدوّنتنا هذه، ولربما عكس الآية مع أحد الخاصة، إذا كان في موقف هزلي أو سُخْرِيٍّ من باب الازدراء بمخاطب بعينه، ومما أسفت له، في حدود علمي، أن البحوث الجامعية التي أُنجِزَتْ حول أدب الشيخ ولغته وأسلوبه لم تتناول بشكل منهجي هذه الظاهرة تناولاً مستقلاً.

1-2-1- التناص بين الدارسين العرب والغربيين

ومع ذلك، فهناك صعوبة تكمن في التمييز بين الاقتباس من جهة، والتناص من جهة أخرى، وما انضاف إليهما من تضمين، وعقد، وحلّ، وتلميح، وحدّد الدارسون البلاغيون العرب القدماء هذه الأضرب تحديداً وافيّاً، بما في ذلك التناص الذي عبّروا عنه بمصطلحاتهم الخاصة، وإدراكهم العامة، ومعظم ما ورد في التناصات الأدبية الحديثة عند الغربيين، من باختين إلى جوليا كريستيفا فجيران جنيت، موجود لديهم بشيء من الإسهاب الذي يجعلك مشدوداً إليهم بما يشبه الدهول، ولكن الدارسين العرب المحدثين الذين تدارسوا التناص أو شيئاً من ذلك، وهم قليلون، تراهم يغرقون فيما استحدثت أو أحدثه الغربيون من آراء و"نظريات" تناصية، دون المرور بما أدلى العرب القدماء من بلاغيين ونقّدة وعلماء التفسير دِلَالَةً في هذا اليمّ الأدبي، واللساني الطامي.

ولسنا هنا في مجال يسمح لنا بتشريح المفاهيم التناصية أو الأبعاد المتصلة بها، ولكن هذا لا يضير، فيما أظن، تحليلنا هذا، إذا أحلنا على بعض الدراسات البلاغية والنقدية وحتى التفسيرية، بما يتماشى مع هذا التحليل.

1-3- نقات معلّمة للتناص لدى القزويني

1-3-1- أجزاؤه

فأنت إذا عدت إلى الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني (661-736هـ)، لوجدت التناص وما لامسه أو تخلّله من مفاهيم متداخلة معه أو قريبة منه بنسبة ما، لوقفت على عجب عجاب "ومما يتصل بهذا الفن القول في الاقتباس والتضمين والعقد والحل والتلميح، أما الاقتباس، فهو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا على أنه منه، كقول الحريري: فلم يكن إلا كلمح البصر أو هو أقرب، حتى أنشد فأغرب، وقوله: أنا أنبئكم بتأويله، وأميز صحيح القول من عليه، وقول ابن نباتة الخطيب: يا أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون؟ ما لكم لا تشفقون؟ فرب السماء والأرض، إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون، وقوله أيضاً من خطبة أخرى ذكر فيه القيامة: هنالك يرفع الحجاب، ويوضع الكتاب، ويجمع من وجب له الثواب، وحق عليه العقاب، فيضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب..."(1).

1-3-2- الاقتباس

إن النصوص التي مثل بها الخطيب القزويني نصوص انطوت على معاني دينية من القرآن والسنة، وهو ما يدعى بالاقتباس، فقول الحريري مثلاً "فلم يكن إلا كلمح البصر" مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ﴾ (2)، أو من قوله الآخر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (3). وقوله "أنبئكم بتأويله" مقتبس من قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (4)، وقول ابن نباتة في ذكر أهوال القيامة مقتبس من قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ (5).

1-3-3- التضمين

على أَنِّي سَأُنْشِئُ عِنْدَ بِيْعِي "أَضَاعُونِي وَأَيُّ فِتْنٍ أَضَاعُوا؟"

لیوم کریهۃ و سِدَادِ ثَغْرِ

وَوُصِفَ التَّضْمِينُ فِي الشَّعْرِ، بِأَن يَتَعَلَّقَ مَعْنَى الْبَيْتِ بِالَّذِي قَبْلَهُ تَعَلُّقًا لَا يَصِحُّ إِلَّا بِهِ⁽⁶⁾.

1-3-4- العقد

ويطلق العقد، ويراد به نظم كلام منشور نظامًا مختلفًا على طريق الاقتباس من القرآن، والحديث، والأقوال المأثورة السائرة بين العامة والخاصة، من أمثال، وحكم، وعادات تواصلية يتخذها الناظم زادًا خاميًا، لتقوية موقفه، وتبرير خطابه، وإقناع متلقيه مع ما فيه من تكلف ظاهر، وبيان في التعبير قاصر:

وَأَشْهَدُ مَعَشِرًا قَدْ شَاهَدُوهُ
عَنْتَ لَجَلالِ هَيْبَتِهِ الْوَجْوهُ
إِلَى أَجَلٍ مَسْمُومٍ فَاكْتُبُوهُ⁽⁷⁾

1-3-5-الحل

وأما الحل، فهو نشر المنظوم، على أن يكون "سبكه مختاراً لا يتقاصر عن سبك أصله،... وأن يكون حسن الموقع مستقراً في محله غير قلق، وذلك كقول بعض المغاربة: فإنه لما قبحت فعلاته، وحفظت لخلاته، لم يزل سوء الظن يقتاده، ويصدق توهمه الذي يعتاده، حلّ قول أبي الطيب:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم⁽⁸⁾

1-3-6- التلميح

بينما التلميح أن يشار إلى نص من غير التصريح به، وكمثال على التلميح، فإنّ أبا تمام أوماً في بعض شعره إلى قصّة يوشع بن نون فتى النبيّ موسى "واستيقافه الشّمس، فإنه روى أنه قاتل الجبارين يوم الجمعة، فلما أدبرت الشمس، خاف أن تغيب قبل أن يفرغ منهم، ويدخل السبت، فلا يحلّ له قتالهم، فدعا الله فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم"⁽⁹⁾.

وكان أبو تمام ممن أُلح إلى هذه القصّة العجيبة⁽¹⁰⁾:

لحقنا بأخراهم وقد حروم الهوى	قلوباً عهدنا طيرها وهى وقع
فردت علينا الشمس والليل راغم	بشمس أهم من جانب الخدر تطلع
نضا ضوءها صبغ الدجنة وانطوى	لبهجتها ثوب السماء المجرع
فوالله ما أدري أحلام نائم	ألمت بنا أم كان في الركب يوشع؟

والتلميح إلى نص يغفل ذكره غير مقيد بنثر ولا شعر، كقول الشاعر:

لعمرو مع الرمضاء والنار تلتظي أرق وأحفى منك في ساعة الكرب

يلمح به إلى البيت المشهور:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السمّ نافع

1-4-1- مصطلحات تناسلية

ذكر بعض علماء البيان والنقد والتفسير أن المؤلف إن أتى بمعنى لم يسبق إليه، فلا يدخل في مجال الاتهام بالسرقة أو الأخذ مما تقدمه، وإن سبق إليه، وأخذه بعين لفظ السابق على هيئته، فهو النسخ، إلا إذا كان تضميناً، وإن غير لفظه تغييراً حسناً ساوياً التركيب الأصلي أو زاد عليه، فهو السليخ، لأنه أخذ بعض الشيء المسلوخ، وإن أبرزه في معرض رديء، وهينة قبيحة، فهو المسخ (11).

2-4-1- صاحب الإكسير يشرّح مفاهيم التناس

وأحسب أن مفهوم السلخ هنا أقرب وأنسب إلى المفهوم الحديث للتناص أو البيئصة "وأما السلخ فهو أخذ المعنى دون اللفظ، فلا عيب فيه، إذ لا يستعني الثاني من استعارة المعاني ممن تقدّمه، وقد قال علي رضي الله عنه "لولا أن الكلام يعاد لنفد"، ولأنّ المعاني مشتركة، وإنما التفاضل في جودة الصناعة اللفظية، وحسن السبك،... وبالجملة، فاستعارة المعاني وتداولها إجماع من العالم، لكن ينبغي للثاني مراعاة ما قدّمنا ذكره من إبراز المعاني

المستعارة في تركيب بديع، ومنظر أنيق... وهو ضربان: أحدهما أن يزيد الثاني على الأول شيئاً، فَمِنْ أمثلة ذلك قول العرب: "القتل أنفى للقتل، فجاء القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، وهو أحسن وأبدع، لأنه أخصر في الحروف، وأعدل في المخارج، وهو عَرِيّ عن التكرار، وفيه ذكر القصاص المشعر بالتساوي والعدل، والدلالة على حصول الغرض، إذ ليس كل قتل ينفي القتل، بل ما كان قصاصاً، أما العدوان، فإنه يوقع المخرج، ويكثر القتل، ثم نظم الشاعر هذه المعاني، فقال:

بسفك الدما يا جاري تحقن الدما وبالقتل تنجو كل نفس من القتل⁽¹²⁾

1-5- أمثلة على التناص المسمّى سلخاً

ومن السلخ أو التناص نظير ما جاء على لسان شاعر عربي قديم:

وَحَيِّ ذَوِي الْأَضْغَانِ تَسْبِ عَقُولِهِمْ تَحِيَّةُ ذِي الْحُسْنَى وَقَدْ يَرْفَعُ النُّغْلُ
وإن دحسوا بالقول فاعفُ تَكْرِماً وإن كتموا عنك الحديث فلا تسلُ
فإن الذي يُؤذيك منه سماعه وإن الذي قـالوا وراءك لـم
يُقـلُ

ولما نزل القرآن جاء فيه قوله تعالى متناصاً: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾⁽¹³⁾، ونقول تناص النص القرآني بما تقدمه من بعض كلام العرب باعتبار النزول، لا باعتبار الوجود، بل ما بُعث المنزل عليه، إلا لَتِمَّة مكارم الاخلاق، وما كان أفاضل القوم في الجاهلية إلا أفاضل في الإسلام.

ومن التناص المسمّى سلخاً قول النابغة:

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم عصائب طير تهتدي بعصائب

حيث أخذه الأفوه الأودي أخذاً مختصراً، ولا يقل جودة ورونقاً من المتناص معه:

رأي العين ثقة أن ستمار

وترى الطير على آثارنا

إلى غير ذلك من نصوص وتراكيب يصعب تتبعها وحصرها بين الشعراء والأدباء العرب قدمائهم ومحدثهم.

1-6- سيد البلاغيين يقرب التناس

ولعل أولى وأقوى من نستأنس به في هذا الفن سيد البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (471هـ أو 474هـ)، إذ ذكر الإمام "اعلم أن الشاعرين إذا اتفقا، لم يخل ذلك من أن يكون في الغرض على الجملة والعموم، أو في وجه الدلالة على ذلك الغرض... فأما الاتفاق في عموم الغرض، فما لا يكون الاشتراك فيه داخلاً في الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة، لا ترى من به حس يدعي ذلك، ويأبى الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ، وإنما يقع الغلط من بعض من لا يحسن التحصيل، ولا ينعم التأمل، فيما يؤدي إلى ذلك، حتى يدعى عليه في الحاجة أنه بما قاله قد دخل في حكم من يجعل أحد الشاعرين عيالا على الآخر في تصور معنى الشجاعة، وأما مما يمدح به، وأن الجهل مما يذم به، فأما أن يقوله صريحا، ويرتكبه قصداً فلا، وأما الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض، فيجب أن ينظر، فإن كان مما اشترك الناس في معرفته، وكان مستقراً في العقول والعادات، فإن حكم ذلك، وإن كان خصوصاً في المعنى، حكم العموم الذي تقدم ذكره، سواء أكان ذلك ممن حضرك في زمانك، أم كان ممن سبق في الأزمنة الماضية والقرون الحالية، لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم، ولا يحتاج في العلم به إلى روية واستنباط وتدبر وتأمل، وإنما هو في حكم الغرائز المركزة في النفوس... وإن كان مما ينتهي إليه المتكلم بنظر وتدبر، ويناله بطلب واجتهاد، ولم يكن كالأول في حضوره إياه... فهو الذي يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولوية، وأن يجعل فيه سلف وخلف، ومفيد ومستفيد، وأن يُقَصَّى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر، وأن الثاني زاد على الأول أو نقص عنه، وترقى إلى غاية أبعد من غايته، أو انخط إلى منزلة هي دون منزلته" (14).

1-7- اكتشاف نوع الأسلوب من مهمة المتلقي

ومن حق المتلقي المتاح له أن يقف على هذا العمل أن يتساءل، أو يعتب علينا معتباً خفيفاً أو عنيفاً، إذا ما رأنا حدنا عن مسارنا المنوط أولاً وقبل أي شيء بتحليل ما في مدونتنا الإبراهيمية من تناصات أو اقتباسات أو تضمينات، وربما سيكون عتابه أشد حين يعترض علينا بأن هذه المدونة لا يوجد فيها مثلاً عقد ولا حلّ، مع أنه المح إليهما.

وأما ذكر بعض الظواهر البديعية، التي لم ترد في مدونتنا، فإن ذكرها في حد ذاته قراءة دالة على انعدامها، إذ لم يقدم الكاتب على عقد، ولكن لا أحد ممن يقرأ هذه المدونة لا يرتاب مرة أو مرات بأن الكاتب يكون قد نثر بلغته العالية نظماً من هنا أو هناك نثراً سبكاً لا يتقاصر عن سبك أصله، خاصة وأن نثر الإبراهيمي نثر شعري لا ينقصه إلا الوزن والقافية، وعليك أن تكون أديباً موسوعياً لتقف على ما ورد من حلّ في هذه المدونة "...لقد أذكرني ضبكم بما كنت أحفظه عما قيل في الضب وعلى لسانه، وما ضرب من الأمثال المتعلقة به، ما لو خلعت عليه أيام الصبا جدداً، ونفضت عليه ماء الشباب مداداً أو مدداً، لم أكن لأذكره"، فالرجل يقر بحفظ كميات غزيرة نوعية من مختلف الأجناس الأدبية، مما قيل في الضب، وهذا الإقرار يقتاده دون شعور إلى حلّ، أي نثر بعض ما قيل من منظوم في هذا الحيوان، واكتشاف هذا الأسلوب البديعي من مهمة القارئ، وليس من مهمة الكاتب أن يكشف لك عن نفسه كل شيء.

1-8- تفاوت الظواهر البديعية في سموها

ونحسب أن هذه الأنواع البديعية من تناص واقتباس، وتضمين، وتلميح، وعقد، وحل، درجات بيانية بعضها أسمى من بعض يتقدمها التناص، لأن هذا الفن الأدبي إذا برز عن موهبة تقاطعت لا شعورياً مع غيرها من المواهب السابقة الخلافة، يمكن على تعدد أضربه أن يشمل كل هذه الأنواع البديعية، ما عدا العقد والحل.

ولعل أنور نبراس يساعدنا على تمييز الاقتباس من التضمين أن نتبني رؤية البلاغيين، من أن الاقتباس هو أن يدخل المتكلم شيئاً من نصوص غيره، بطريقة لا يشعر معها أن الكلام المقتبس أجنبي عن نصه، أما التضمين، فهو أن يضمّن المتكلم نصه شيئاً من كلام غيره، وفي الوقت نفسه يجوز للمبدع أو الكاتب في الاقتباس أن يغير تغييراً يسيراً فيما يقبّس، حتى لو تعلّق الأمر بأقدس نص:

مع أن نص الآية ﴿إِنَّا لِلّٰهِ، وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، بل لا مانع من تغيير البناء المقتبس زيادة أو نقصاناً أو تقديماً أو تأخيراً... بينما التضمين يحافظ فيه المتكلم على سلامة بنية ما يضمّنه كلامه، ولا يحقّ لك أن تتصرّف في تغيير اللفظ المقتبس كأن تزيد فيه أو تنقص منه، فضلاً عن السماح لك بتقديم أو تأخير، شأنك في هذا مع الاقتباس، ولذا، فإنّ الاقتباس أكثر دوراناً بين الناس، بالنظر إلى سهولته، وشفافيته، وشعور الكاتب بقدر كبير من الحرية فيه.

2-1- طبيعة الاقتباسات في النص

وبناء على ما ورد أعلاه، فإن رسالة "الضب" للبشير الإبراهيمي رسالة أدبية هزلية لا تعدم معالم جاحظية، وما ورد فيها من اقتباسات، تصرّف فيه الكاتب تصرفاً ما بين أدبي وأقصى، وليس من السهل على أيّ كان أن يتصيد ماهو بعيد وعميق مما ورد في رسائله من اقتباسات ثابتة هنا ومتغيرة هناك، قربة التناول في موضع وبعيدة الإدراك في موضع آخر، إلى درجة أنّ ما فيها من تلميحات يعتبر أيسر من بعض ما جاء فيها من اقتباسات، بل ربما وقعت في حيرة من أمرك أحياناً، إذا ما تدخل اقتباس أو تناصّ (أو سلخ) بتلميح.

2-2- تلميح في صورة تناص

ولعل أول إشارة إلى ما يمكن أن نسميه هنا تلميحا في صورة تناص قول الكاتب (الإبراهيمي): "فعاتبتكم.. عتاب مغفل بما معناه أنني شَبَّبت عن طوق هذه الأحناش" مشيرا إلى المثل العربي "كَبِرَ عَمْرُو عَنِ الطَّوْقِ" أو "شَبَّ عَمْرُو عَنِ الطَّوْقِ".

تناص الكاتب مع هذا المثل الذي يُضْرَبُ بِمَلَأْسٍ ما هو دون قدره "وهو عَمْرُو بْنُ عَدِيٍّ، وكان حاله جَدِيمَةٌ جمع غِلْمَانًا من أبناء الملوك يَخْدِمُونَهُ، منهم عَدِيٌّ، وكان جميلا فَعَشِقَتْهُ رَقَاشٌ (15)، أختُ جَدِيمَةٍ، فقالت له: إذا سَقَيْتَ الملكَ فَسَكِرَ، فاخْطُبْنِي إليه، فسَقَى عَدِيٌّ جَدِيمَةً، وَأَلْطَفَ له، فلما سَكِرَ، قال سَلِّني ما أَحْبَبْتَ، فقال: زَوِّجْنِي رَقَاشَ أُخْتِكَ، قال: قد فَعَلْتُ، فَعَلِمْتُ رَقَاشَ أَنَّهُ سَيُنَكِّرُ إذا فاق، فقالت للغلام: ادْخُلْ على أَهْلِكَ، فَفَعَلَ، وأصبح في ثياب جُدُدٍ وَطِيبٍ، فلما رآه جَدِيمَةٌ، قال: ما هذا؟ قال: أَنُكَحْتَنِي أُخْتُكَ البَارِحَةَ، فقال ما فَعَلْتُ، وجعل يضرب وجهه ورأسه، وأقْبَلَ على رَقَاشٍ، وقال:

حَدَّثْنِي وَأَنْتِ غَيْرُ كَذُوبٍ أَيْحُرُّ زَيْتٌ أَمْ يَهْجَيْنِ؟
أَمْ بَعْدٍ وَأَنْتِ أَهْلٌ لِّلْعَبْدِ أَمْ بَدُونٍ وَأَنْتِ أَهْلٌ لِّلْدُونِ؟

فقالت بل زَوَّجْتَنِي كَفْؤاً كريماً من أبناء الملوك، فأطرق جَدِيمَةٌ، فلَمَّا أُخْبِرَ عَدِيٌّ بذلك خاف، فهرب، ولحق بقومه، ومات هنالك، وَعَلِقَتْ منه رَقَاشُ فَأَتَتْ بَابَن سَمَاهُ جَدِيمَةً عَمْرًا، وَتَبَّاهُ وَأَحْبَهُ حَبًّا شَدِيدًا وكان لا يولد له... ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ يَوْمًا وَعَلَيْهِ حُلِيٌّ وَثِيَابٌ، فَاسْتُطِيرَ، فَفَقِدَ زَمَانًا، فَضُرِبَ فِي الْآفَاقِ، فَلَمْ يُوجَدْ... ثُمَّ وَجده رجلاً... كانا متوجهين إلى جَدِيمَةٍ بهدايا،... فسألاه: من أنت؟ فقال: ابْنُ التَّنَوُخِيَّةِ، فقالا لجارية معهما: أطعِمينا، فأطعمتهما، فأشار عمرو إليها: أَنْ أَطْعِمِي، فأطعمته، ثُمَّ سَقَتْهُمَا، فقال عمرو: اسقيني، فقالت الجارية: "لا تُطْعِمِ الْعَبْدَ الْكُرَاعَ فَيُطْمَعَ فِي الدَّرَاعِ"، ثُمَّ إِهْمَا حَمَلَاهُ إِلَى جَدِيمَةٍ، فَعَرَفَهُ وَضَمَّهُ وَقَبَّلَهُ، وَقَالَ

لهما: حُكْمُكُمَا! فسألاه منادمةً، فلم يزالا نَدِيمِيَّهِ، وبعث عمرًا إلى أمه، فأدخلته الحَمَّامَ، وألبسته وطوقته طوقًا كان له من ذهب، فلما رآه جديمة، قال: "كَبِرَ عَمْرُو عَنِ الطُّوقِ" (16).

فأتى لأيّ كان أن يستبين هذا الإلماع لقصة عربية حقيقية، أو ميثولوجية رائعة. بمجرد تَلَفُّظِهِ "إني شُيِّبْتُ عن طوق هذه الأحناش"؟ وهل لهامة من الهوام طوق من ذهب كطوق الغلام عمرو الذي عاد طوق عنقه أكبر منه؟ نحن لا ننكر أن العربية التي نعبر بها تطلق الطوق على سبيل الحقيقة على كل ما استدار به، وأن "المُطَوَّقَة" هي الحمامة التي في عنقها طُوقٌ (17)، ومن ممّا لا يذكر "طوق الحمامة" لابن حزم؟

2-3- تَصْرُفُ الكَاتِبِ فِي تَنَاصَّاتِهِ

بل، إلى هنا يبدو التلميح، وكأنه أمر عادي غير أن الكاتب بذل المسند إليه (عمرو) في المثل بمسند آخر، أسنده المتكلم إلى نفسه معبرًا عنه بضمير متصل، وعَرَّفَ الطوق بإضافته إلى الأحناش، وشتان ما بين التعريفين وظيفيًا، فـ"الـ" مونيم نحوي مستقل وظيفته تعيين الجنس المشار به إلى الحلي الذي كان يرصع عنق الغلام، ولا إضافة لفظية ولا معنوية فيه، على حين أن تجريد الكاتب الطوق من أداة التعريف (الـ) جعله يشير بوظيفة إضافته (الطوق) إلى إفادة معنوية، والإضافة المعنوية تمنع دخول (الـ) على المضاف، بل ضيّقت عموم المضاف (طوق)، فبينما كان يراد به في نصه الأصلي أي طوق (حَلِي)، خصّصته الإضافة هنا بطوق حيوانات معينة.

أما إذا أردت أن تتجادل فيما أدخل الكاتب من صور تخيلية، حيث شبه بلوغه كهولته التي عادت لا تحتفل بأشكال من اللعب والدمى، يكبر عنق عمرو عن طوقه القديم، ومثلما صار هذا الطوق غير مناسب لعمرو، فكذلك غدا ما أُهْدِي له غير ملائم لعمره، فذاك جدال آخر، لأن الكاتب أضفى على تلميحه صورة بيانية رائعة، وهي زيادة حسنة، قد تنسك معها أن الكاتب يحيل بمعناه إلى مثل عربي سائر، لأنه كلما كان التناص أخفى كان أرقى وأدّل على مدى التناص وقياسه، أهو اقتباس أو سَلَخ أم تقليد أو مسخ؟

2-4- تلميحات بديعية بعيدة

ومن التلميحات البديعة في هذه المدونة تلميح البعيد "ثم فاء عليّ عازب عقلي" من عَزَبَ يَعْزُبُ وَيَعْزُبُ عن المرء شيء، إذا غاب عن عقله، أو من عَزَبَتِ الإبل، إذا أَبْعَدَتْ في المرعى لا تروح، وهذه الدلالة متناصة مع قوله تعالى: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾⁽¹⁸⁾، أو في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾⁽¹⁹⁾؛ ومعنى عَزَبَ في الآيتين: "لا يغيب عن علمه شيء"⁽²⁰⁾.

2-5- إلماح الكاتب إلى النجوم والكواكب

2-5-1- تُفَنُّنُ الشعراء العرب في وصف النجوم

ومن تلميحاته الكثيرة قوله: "واعتبر ما قالوه في سهيل والجوزاء والسماكين والأعزل والرامح والثريا والغضيب والديران والنسري الواقع والطائر على كثرة النجوم وكثرة ما قالوه فيها..."

لا نرغب أن نزعج المتلقي في إحالة كل نجم ألمح إليه الكاتب، إلى مظانه، لأنه لا أحد ينكر أن الشعراء العرب لهم باع طويل في وصف النجوم التي كانت دليلهم، وهاديتهم، ورفيقهم، لَهَجُوا بِهَا لَهَجَ الفصيلِ بِضَرْعِ أمّه، واشرأبوا إلى أنوارها، ودورائها، يصفونها، ويشبهون الأسفل بالأعلى بها، ويقربون الجميل بالأجمل منها، والزاهي الخافت بالأزهي والأشرق في سباحتها،...

2-5-2- وَصَفُ الثريا بين شاعرين

ولم يكن الشعراء العرب مبتدلين فيما يصفون على النجوم من دلالات وأفكار، ولم تكن معانيهم متساوقة، بل كانوا يتفننون في تعاطيها تفنناً مستقلاً، إلا ما ورد ورود خواطر،

أو برز بروز تناص عفوي، لا سَطَوَ تلاصَّ أو مسَّخ فامرؤ القيس، إذا ما شبَّه اجتماع الكواكب في الثريا ودُنُوَّ بعضها من بعض بالوشاح، المنظَّم بالودَّع المفصَّل بينه:

إذا ما الثَّريَّا في السماء تعرَّضت تعرَّضَ أنشاء الوشاح المفصَّل

فإن شاعراً آخر كالأحوص الأنصاري (زهاء 105هـ؟) يشبِّه قوما (بني حرب)⁽²¹⁾، في ارتفاع منزلتهم وسمو مرتبتهم بالثريا إذا استعلت وصارت على قمة الرأس:

وإنَّ بني حرب كما قدَّ علِمْتُمُ مناطَ⁽²²⁾ الثَّريَّا قد تَعَلَّتْ نُجُومُهَا

2-5-3- تباري الشعراء في النجوم

وتبارى الشعراء العرب في إضفاء صفات متباينة على مختلف النجوم التي ولجت ثقافتهم، وتمازجت بنفوسهم، حتى إنهم كانوا يضيفون الأمطار إلى الأنواء فيقولون: "مُطِرْنَا بنوء الثريا، ومُطِرْنَا بنوء الدَّيرَانِ (مَزل للمعر)، ومُطِرْنَا بنوء السَّمَاءِ... والأنواء ثمانية وعشرون نجماً معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها، يسقط منها في كل ثلاث عشرة ليلة نجم في المغرب مع طلوع الفجر، ويطلع آخر في المشرق من ساعته، وكلاهما معلوم مسمًى، وانقضاء هذه الثمانية وعشرين كلها مع انقضاء السنة، ثم يرجع الأمر إلى النجم الأول مع استئناف السنة المقبلة..."⁽²³⁾. ومن ذكر السماك أو نوء السماك الأحوص:

قامتُ تُرَيْك شَتِيَتِ النَّبْتُ ذَا أُشُرٍ كَأَنَّهُ مِنْ سَوَارِي صَيِّفٍ بَرْدُ
أَهْدَى أَهْلَتُهُ نَوَّءَ السَّمَاءِ لَهَا حَتَّى تَنَاهَتْ بِهِ الْكُثْبَانُ وَالْجَرْدُ

علماً بأن السماك جاء في الشعر مُثْنَى ومُوحَّداً (مفرداً)، وهما كوكبان نيران: يسمًى أحدهما السَّمَاءُ الأعزل، وهو من منازل القمر، والسماك الرامح، وليس من المنازل،... والشاعر نفسه يقول:

لِي لَيْلَتَانِ، فَلَيْلَةٌ مَعْسُولَةٌ أَلْقَى الْحَيِّبَ بِهَا بَنَجْمَ الْأُسْعَدِ
وَمُرِيحَةً هَمِّي عَلَيَّ كَأَنِّي حَتَّى الصَّبَاحِ مُعَلَّقٌ بِالْفَرْقَدِ

حيث ذكر الأسعد، وهو أربعة منازل من منازل القمر لكل منها اسم خاص بها، وذكر الفرقد، وهو نجم يُهتدى به، ما أكثر وروده في أشعارهم، وتارة يذكر مثنى أو تارة أخرى موحدًا.

وجاء عنده النسر، وهو أحد كوكبين، يقال لهما النسران تشبيها بالنسر الطائر، حيث يجعلون النسر الواقع مقابل النسر الطائر:

فطَرَفْتُهُنَّ مَعَ الْجَرِيِّ وَقَدْ نَامَ الرَّقِيبُ وَحَلَّقَ النَّسْرُ

2-6- ظلال اللزوميات المعرّية في المدونة

2-6-1- نصوص معرّية في المدونة

وأشار الكاتب أيضا فيما أشار إلى لزوميات أبي العلاء المعري "ومن بدائع تشبيهاتهم في النجوم، أخذ المعري تلك المنازع الغريبة، وتلك النظرات الفلسفية البعيدة الغور المنبئة في لزومياته"، ولا تنبع هذه الإماعة إلا عن عالم بما يقول، فأنت إذا تصفحت "رسائل أبي العلاء المعري"، لوقفت فيها على ذكر شاعر الفلاسفة، وفيلسوف الشعراء، ضروباً شتى من أسماء النجوم، فما بالك لو مررت بلزومياته مرور الفضولي المتحري؟ فالرجل لم يَلْعَ بالنجوم وَلَعَّ شاعر مُعَلِّقٍ مُفَلِّقٍ وَحَسْبُ، بل وَلَوَعَ أديب سَاخِرٍ نَاثِرٍ أَيْضاً في رسائله⁽²⁴⁾ نجومًا وأبراجًا وكواكب، وأحسب أن ضريراً بعامة، وأديباً ضريراً بخاصة، يتعاطى الأشياء، أو يصفها أو يتعامل معها بحدود البصير التي لا يتحرر منها إلا إذا خرج من فضاء ممكن، ودخل فضاء مستحيلًا، بفضل ما تهبه اللغة من مسالك مجازية، أما الأديب الضرير، وهو يعبر عن صورته،

وَيَصْدُرُّ عَنْ أَحْيَلْتِهِ، فَلَا يَشْعُرُ أَمَامَهُ إِلَّا بِفُضَاءٍ وَاحِدٍ غَيْرٍ مُنْفَصِلٍ، فَالْقَابِلُ لِلْإِمْكَانِ وَالْأَقَابِلِ عِنْدَهُ سَيَّانٌ.

ومما ذكره أبو العلاء المعري من كواكب، ونجوم، وأبراج:

- "شهد بذلك الأزهران" (25).

- "فلما انقضى زمانهم، خَلَفَ عَلَى الْمَمْلَكَةِ أزدَشِيرٌ، وَهُوَ بِرَدِّ الْمَمْلَكَةِ إِلَى الْفَرَسِ بِشِيرٌ، ثُمَّ هَلَكَ، وَقَامَ سَابُورٌ" (26)، وَيُطْعِمُكَ إِتَاءَهُ (ثمرة) النخل المأبور (الملقح)، ثُمَّ قَامَ بَعْدَهُ هُرْمُزٌ فَلَمَزَتْهُ (عابته) فِي الرَّأْيِ اللَّمَزُ" (27)، ثُمَّ خَلَفَهُ بِهِرَامٌ" (28)، سَيِّئُ الْمَرِيخِ" (29).

- "وكان لا ينادم (جذيمة) أحداً إلا الفرقدان" (30).

- "حتى إذا يَسَرَ عَمِيمٌ رَوْضٍ، تَتَبَعَ بِهَا أَثَرَ كُلِّ نَوْضٍ (مخرج الماء)، فلما طلعتِ الْمُنْعَةُ" (31)، أَوْ الذَّرَاعُ" (32)، وَهَنَّ إِلَى الْمَوْرَدِ سِرَاعٌ، أَوْ قَدْ نَاجِرٌ" (33)، مِنَ الْغُلَلِ جَمْرًا، وَذَكَرَنَّ مَوْرِدًا غَمْرًا (كثير الماء)، فَوَرَدَنَّ، وَقَدْ طَلَعَ ذَنْبُ السَّرْحَانِ (الفجر الكاذب)" (34).

2-6-2- ظواهر فلكية معرّية في المدونة

وتضمّنت رسائله (35) جملة من النجوم والظواهر الفلكية التي استعان بها في الاستعلاء بمن يصف، أو يشبه، أو بغرض السجع "ولولا أنه قد أضمر هيجران الثريا، والجنب إلى الجنوب ذات الرّيا، واحبّان (جلس غاضبا جامعا بين ساقيه وظهره) ينظر إلى سهيل مجاور قريب، لا نظر لامح قريب، لكان الرأي مقامه بتلك الحضرة" (36)، أو كقوله ملّمحا لظواهر طبيعية وفلكية: "فجاء كلوائح البروق، أو يوح (علم للشمس) عند الشروق" (37)، ولربما وجدته عمداً إلى استثمار الظواهر الفلكية لغرض بلاغي قريب أو بعيد، كالجnas في قوله "والنزام تسر الحافر مرام النسرات" (38)، فهو كنى بالنسر الأول عن لحمه يابسة في بطن الحافر، كأها نواة أو حصاة، وبالنسر الثاني عن اسم كوكب، إذ الكلمتان متفقتان صوتياً، ومتباينتان دلاليًا،...

وبالجملة، فقد تردّدت أسماء الكواكب والأبراج والنجوم في رسائله الثانية والأربعين أكثر من ثمانين مرة، دون احتساب تكرار نجوم بعينها فيها مرة أو مرات.

2-6-3- ومضات تلميحية إلى نصوص أخرى

وفي الرسالة ومضات تلميحية أخرى متنوعة كثير منها يفسر بعضها بعضاً، كإشارته إلى الرسائل اللغوية في النبات والشجر، وخلق الإنسان، ذكر الكاتب بعضاً منها، وترك سائرها للمتلقّي،... أو تلميحات أدبية أخرى "فقا نبك..." إلخ إلى مطلع مُعلّقة امرئ القيس،... الخ.

2-7 في مدونتنا تناصات تدعى التضمين

وفي مدونتنا ضرب آخر من التناص يُدعى في علم البلاغة التضمين "وهو جعل المتكلم يضمّن كلاماً أجنبياً من قرآن، أو شعر، أو مثل سائر، متمماً له ومنتظماً في سلوكه، غير مسمّى قائله، لشهرته، أو مصرّح بأنه لغيره في الجملة، وهو يزيد الكلام حلاوة، ويكسبه رونقا وطلاوة"⁽³⁹⁾.

وليس التضمين وفقاً على الجنس الشعري دون سائر الأجناس الأدبية الأخرى، ومن هذه التضمينات تضمين البشير الإبراهيمي أسلوبه أمثالاً عربية متناسبة مع فحوى عرضه، منها "أعقدُ من ذَنْبِ الضَّبِّ"، لأنّ ذنب الضب ذو عُقدٍ كثيرة، وأطولُه يكون قَدَرٌ شير، خلافاً لذنب الورل الذي ذنبه طويل قد يُربّي على ذراعين، وكانت "العرب تستخبث الورل وتستقدّره، ولا تأكله، وأما الضب، فإنهم يحرصون على صيده وأكله، والضَّبُّ أحرشُ الذنب حَشِينُهُ، مَقْفَرُهُ، ولونه إلى الصُّحْمَةِ"⁽⁴⁰⁾، وهي غيرة مُشْرِبة سواداً..."⁽⁴¹⁾، وليس في هذا التضمين هنا ما يدعو إلى نسبة خاصة، لأنه جزء من ذاكرة العرب، وملك لجماعة لا لفرد.

وكذلك قوله: "ضَلَّ دُرَيْصٌ نَفَقَهُ"، وقوله أيضاً: "تَخَلَّصَتْ قَائِبَةٌ مِنْ قُوبٍ"، فالدُرَيْصُ ولد الفأرة واليربوع والهرّة وأشباه ذلك، ويضرب هذا المثل لِمَن يعيا بأمره، وجمع

الدَّرْصُ أَذْرَاصٌ وَدِرْصَةٌ، والمثل الثاني يُضْرَبُ للرجل إذا تخلص من صاحبه، كتخلص الفرخ من بيضته إذا قلبها أي فلقها، وضمَّن بعض الشعراء العرب هذا التمثيل البعيد:

لَهْنٌ وَلَمْشِيبٍ وَمِنْ عَلاَهُ مِنْ الْأَمْثَالِ قَائِبَةٌ وَقُوبٌ⁽⁴²⁾

2-8- تضمين الكاتب شواهد نحوية

وَضَمَّنَ حديثه أيضاً شاهداً نحوياً من صنع النحويين مثّلوا به للجر بالمجاورة أو التوهم، وهو قولهم: "هذا جُحْرٌ ضَبَّ حَرْبٍ"، ويعدّ الكاتب هذا الشاهد من الشذوذات اللغوية، والانحراف عن القياس اللغوي المعهود معتبراً إياه مثلاً سوقياً توارثته النحاة خلفاً عن سلف فيما بينهم، مفنداً هذا الادّعاء بأدلة تبدو مقبولة سطحيّاً، ومردودة على ما جرى عليه كلام العرب، لأن هذا الشاهد فيما يُتمثّل به سانتكسياً وحسب، وليس فيما يُتمثّل به سانتكسياً ودلالياً معاً، لأن العربية لا تمنعك أن تقول مثلاً:

(1) - هذا حفل زفاف بهيج.

(2) - هذا كتاب ولد ممزّق.

(3) - هذا صوت طائر حزين.

لأن تجعل الكلمات الثلاث الأخيرة نعتاً مرفوعاً للكلمات الثلاث الثانية، أو نعتاً مجروراً تابعاً للكلمات الثلاث الثالثة، وأما جر "حرب" فمن باب التجاوز، وعدم الالتفات، والعربية لا تمنعك أن ترفع "حرب" إذا شئت كنعت لـ "جحر".

ثم إن الأهمّ في الشاهد لا علاقة له عند المتكلم والمتلقي برفع أو جر، بل بتبليغ الأول الثاني أن هذا الجحر حيوان بعينه دون سواه من سائر الحيوانات الأخرى التي تتجحر لنفسها جِحْرَةً ومكان، فضلاً عن تأويلات أخرى بعيدة أو قريبة: "هذا جُحْرٌ ضَبَّ حَرْبٍ موضِعُهُ" على أن تكون الجملة الفعلية (جرح موضعهُ) نعتاً للجحر،... الخ، بل قال سيد اللسانيات العربية وإمامها: "ومما جرى نعتاً على غير وجه الكلام، "هذا جُحْرٌ ضَبَّ حَرْبٍ"، فالوجه

الرفع، وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم، وهو القياس، لأن الخرب نعت الجحر، والجحر رفع، ولكن بعض العرب يجره، وليس بنعت للضب ولكنه نعت للذي أضيف إلى الضب، فجرّوه لأنه نكرة كالضب، ولأنه في موضع يقع فيه نعت الضب، لأنه صار هو والضب بمترلة اسم واحد... "(43).

2-9- تناصات متداخلة في رسالة "الضب"

ومما جاء في الرسالة من تناصات متداخلة ما بين تضمين وتلميح واقتباس جميعا قوله: "تصفه (44) العرب بصفة ملازمة، فيقولون: "ضب دامي الأظافر" جمع أظفور، قال الشاعر:

يَرَى الشَّرَّ قَدْ أَفْنَى دَوَائِرَ وَجْهِهِ كَضَبِ الْكُدَى أَفْنَى أَتَامِلُهُ الْخَفَرُ

ومن تمكيمات المعري وهزاته أن صاحبه أبا القاسم المغربي المشهور (45) في علم التاريخ والأدب بالوزير المغربي، اختصر في حادثة سنه (ولد سنة 370هـ) كتاب "إصلاح المنطق" ليعقوب السكيت (الأوضح أن نقول ابن السكيت (186-244هـ) لأن السكيت لقب أبيه إسحاق)، وأهدى منه نسخة إلى صفيّة المعري،... فكتب له المعري (في) جواب الإهداء رسالة من أبداع رسائله (46)، وفيها نقد لكتاب ابن السكيت على طريقة المعري الغريبة في همزيته العجيبة (47)، يقول فيها (48): "وقد تمادى بأبي يوسف رحمه الله الاجتهاد، في إقامة الأشهاد، حتى أنشد رجز (49) الضب، وإن معداً من ذلك لجِدُّ مُعْضَبٍ، أَعْلَى فَصَاحْتِهِ يُسْتَعَانُ بِالْقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَاشِ الْأَرْضِ، مَا رُؤِبَةُ (50) عنده في نفي، فما قولك في ضبّ دامي الأظافر؟"

ومن التلميحات البديعية الجلييلة قوله: "فاعلم أنه الصحراء، ليستهم ولبسوها"، بالتناص مع قوله تعالى: ﴿هَٰؤُلَاءِ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (51)، وقوله: "وهو شائك، وهو لحامله شكة، وحامله منه شاكى سلاح" متناص مع فتاوى لغوية فقلعية (نحت فقه اللغة) لفقلعيّين عرب صناديد، وكأننا بالرجل يجاريهم، أو يهدف إلى بعث الحياة في كلمات

وتراكيب ومشتقات لغوية عربية، كاد الدهر يأكل ويشرب بها، إذ ذكر الجوهري: "ورجل شاكي السلاح، إذا كان ذا شَوْكَةٍ وحدّ في سلاحه"⁽⁵²⁾، مستندا إلى قول الأخفش بأن "شاكي" مقلوب من شائك وفي القاموس "رجل شاكُ السلاح وشائكه وشوكُه وشاكيه: حديده، وشاك بَشَاك شوكًا: ظهرت شوكته وحِدَّتَه"⁽⁵³⁾.

2-10- تلميحات أخرى

ووردت تلميحات أخرى كثيرة في رسالة "الضب"، يمكن لمن له الإلمام خلفي في علوم وفنون شتى أن يسبرُّها، ويردّها إلى مظانّها التي تناصت تناصًّا بعيدًا أو قريبًا منها، ومن هذه التلميحات ماهر قريب جدا كنعي ابن خلدون في زمنه مُزاوولي النحو العربي، وكإشارته السيميائية إلى تسمية العرب أبناءهم وعبيدهم، ومنها ماهو بعيد يحتاج إلى حفظ سابق، وذهن جاهز، وغوص عميق.

وبالمناسبة، فإن محققي إصلاح المنطق لابن السكيت، وهما عالمان جليلان، أنحيا باللائمة على ابن قتيبة (276هـ) الذي ضمّن كتابه "أدب الكاتب" معظم الأبواب الواردة في كتابي ابن السكيت "الألفاظ" و"إصلاح المنطق" دون أن يذكر "له في كتابه فضله ولا سبقه، مع وضوح أخذه من هذين الكتاين"⁽⁵⁴⁾، ولكنهما في الوقت نفسه لم يشيرا بحجة قلم إلى "مختصر إصلاح المنطق" للوزير⁽⁵⁵⁾ أبي القاسم المغربي، وهو موضوع الرسالة المعربة، علما بأن التبريزي (502هـ) قال في مقدمة كتابه "تهذيب إصلاح المنطق": "وكان أبو العلاء المعري والشيوخ الذين قرأت عليهم هذا الكتاب يكرهون منه التكرار الذي فيه" معتمدا على تفسير السيرافي (385هـ) للأبيات الشعرية التي وردت في إصلاح المنطق، بمعنى أن إغفال المحقّقين أو تجاهلهم ذكر "مختصر إصلاح المنطق" للوزير المغربي المولود بمصر، لم أحد له تفسيرا أو سببا أقبله، ولعلّ ذنبه الوحيد أنه من أصول مغربية، مع أن الأستاذ العظيم أحمد محمد شاكر (أحد المحقّقين) أسرّ إلى بعض من زاره من الجزائريين -مثلما حدّثت بذلك- أنه من أصول جزائرية، وبالضبط من "سيدي شاكر" بتلمسان.

2-11- تناس الكاتب بنصوص ضبيّة أخرى

ومما راق الكاتب البشير الإبراهيمي الذي كان يحفظ هذه الرسالة التي تعدّ من عيون الرسائل الأدبية واللّغوية إلى جانب رسالة "المنيح"، وكلتاها وجهت للمغربي، ما جاء فيها من شواهد تصف الضب بما كانت تصفه العرب من أنه "دامي الأظافر" لحفره جحره في الأرض الصلبة القاسحة (وننطقها في عاميتنا بالصاد) المسماة كُدية وجمّعها كُدَى على وزن مُدَى في جمع مُدَيّة (الشفرة) (56).

ولا يكاد الكاتب يغادر الفصل الثاني من رسالته حتى يستهلّ الفصل الثالث منها بإشارة تضمنية أخرى إلى رَحز الضب الذي أشار إليه المعري، بواسطة قراءته لـ "مختصر إصلاح المنطق" واصفا المختصر الذي أنفَذ إليه وَصَفَ ثناءً وفضلٍ، مُنبّها على كثرة فوائده، ولم يعترض إلا على ما أسماه "الشعر الأول" فهو، وإن كان بقية من بقايا ما يُروى عن الأولين ومكرمة من مكرماهم، فإنه "كذب القالة (قائله كثير الكذب)، نَمُومُ الإطالة (مزين بالكذب)"، وما أشار إلى استشهاد ابن السكيت مما تضعه العرب من كلام على ألسنة البهائم، ليس انتقاداً على ابن السكيت كما أشار البشير الإبراهيمي، إذ لا أحسب أن وضع كلام على ألسنة أموات يستغرب إسناد كلام على ألسنة الحيوانات، وسبق لنا أن أوردنا هذه الأبيات بين السمكة والضب.

2-12- سخرية الكاتب من النحاة

ومن الأمثال التي لا علاقة لها بالضب، ما عدا علاقتها بالشواهد النحوية إلحاقاً بشاهددهم "هذا جحر ضب خرب" شاهد مشهور (لا تأكل السمك وتَشْرَبَ اللبن)، غير أن الكاتب يسخر من المعنى الطبي التقليدي الوارد فيه مفنداً زعم قائله طبياً، مستشهداً بنفسه، مقسماً بقسم الزاهري "أما أنا وحياتك - كما يقول الزاهري - فإنني ما رأيت أصلح لمعدتي من الجمع بين السمك واللبن"، ومع ذلك، فإن جميع من نعرف من الأقرباء والأصدقاء يتفادون، ومنهم أنا، الجمع بين السمك واللبن، مثلما نعمل أو نتحاشى سلوكات أخرى ما نزل الله بها

من سلطان، ولكنها العادة التي تغدو في المرء طبعاً تتشاعم شراً من وهمه، أو تتفاعل خيراً من تصوره أنه صنيع في حقيقة غيبه.

أما شاهده النحوي، فإن الفعل (تشرب) منصوب بالواو والمسماة واو المعية في اصطلاح النحاة، وهذا هو المفهوم الشائع، لكن بعض النحاة يسمي هذا الموضع وسواه من مواضع كلامية أخرى "النصب بالصرف" بإضمار ضمير منفصل بعد الواو، والمقصود بالصرف هنا صرف من الرفع إلى النصب، والفعل المنصوب مصروف -أي مَحْلِي سَبِيلُهُ- عن جهته الأصل "لا أركب وأنت تمشي، ولا أشبع وتجوّع، فلما أسقط الكناية، وهي "أنت" نصب، لأن معناه: لا أركب وأنت تمشي، ولا أشبع وأنت تجوّع، فلما أسقط الكناية وهي أنت، نصب، لأنه مصروف عن جهته، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ﴾ وكذلك في البقرة ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ، وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، معناه، والله أعلم: وأنتم تكتُمون الحق، وأنتم تدعون إلى السلم، فلما أسقط "أنتم" نصب... وقال المتوكل الكنانى (57):

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

نصب "تأتي" على فقدان "أنت" ومن الصرف أيضا قول الله عز وجل: ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ﴾ معناه: بلى نقدر، فصرف من الرفع إلى النصب، وقال بعضهم: على معنى بلى، كنا قادرين، قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَنِي عَاهَدْتُ رَبِّي وَإِنِّي لَبَيْنَ رَجَاجٍ (58) قَائِمًا وَمَقَامٍ
عَلَى قَسَمٍ لَا أَشْتُمُ الدَّهْرَ مُسْلِمًا وَلَا خَارِجًا مِنْ فِي زُورٍ كَلَامٍ؟

فنصب "خارجا" على الصرف، معناه: ولا يخرج، فلما صرفه نصبه، وأما نصب (صِبْغَةَ اللَّهِ) فعلى فعل مضمر، اطرَح لعلم المخاطب. بمعناه وهو: الزموا صبغة الله، والصبغة: الدِّين (59)،

وقيل: المعنى قُلْ: بل تَنَّبَع صِبْغَةَ اللَّهِ، أو أَتَّبَعُوا صِبْغَةَ اللَّهِ، أي فطرة الله، ونصبُ "صبغة" على المفعول (60).

2-13- إشارة إلى ما في النص من تحريفات

ومن التضمينات التي اضطرب جامعو آثار البشير وطابعو هذا الكتاب، كدَيْدِنِهِمْ في نصوص وشواهد وتراكيب أخرى، ما جاء في الفصل الرابع: "إِنَّكَ لَو ذُقْتَ الْكُشْيَ بِالْأَكْبَاد... لما تركت الضب يعود بالواد: والكشي جمع كشية، وهي شَحْمَة مستطيلة في الضب، يقول آكله أنه لا أَلَذ منها".

إني تعمدت نقل النص السابق لتنبيه القارئ على ما في مدونتنا من تحريفات وتصحيحات، ونسبة ما لا يُعْقَل أن يُنسب لرجل صَبَغَ يَدَهُ بالعلم، حتى إن ناشري هذه الآثار، لم يكلفوا أنفسهم فصل ماهو موزون مقفًى، ولغير الكاتب، عما هو غير ذلك للكاتب، حيث عجنوا كلام الشيخ بنصوص غيره، وكأن هذا الزمن خلا وأجذب من أرباب وعلماء هذا الفن للاستشارة والمراجعة، ولاسيما حين يتعلق الأمر بنصوص ملغزة وملعمة صدرت عن أدباء مصاقيع، وشعراء فطاحل، ومبدعين أكاديميين،...

أيا كان الأمر، فإن الصواب في النص السابق، يصاغ كمايلي (61):

وَأَنْتَ لَو ذُقْتَ الْكُشْيَ بِالْأَكْبَادُ لَمَّا تَرَكْتَ الضَّبَّ يَغْدُو بِالْوَادُ

وكل المصادر التي عدت إليها تتفق على هذا الرجز المنسوب لأحد الشعراء الأعراب، والكُشْيَ (بألف مقصورة) على وزن دُمًى ومدى كُنًى... مفردها كُشْيَة (62)، وعلى اختلاف العلماء في تحديدها، فهم يتفقون على أن الكشي شحم في بطن الضب بدليل الشاهد السابق، ودليل هذا الشاهد أيضا:

فَلَوْ كَانَ هَذَا الضَّبُّ لَا ذَنْبٌ لَهُ وَلَا كُشْيَةٌ مِمَّا مَسَّهُ الذَّهْرُ لَأَمْسُ

ويظهر أن البشر الإبراهيمي تبني المعنى الذي حدده الزمخشري (467-538هـ) في الأساس، بدليل قوله اللاحق "وتذكرنا كلمة الكشي بكلمة للزمخشري في كلمة النوابع وهي: ما الأعراب بالكُشي أولع من القضاة بالرُشي" (64).

3- إشكالات تناصية

3-1- التناسل عندنا

إن مدوّنتنا لا تزال تعجّ بأمثال وإشارات ونصوص أخرى ضمنها الكاتب رسالته، ولكن رفقا بهذا العمل، فإننا ندعها لمن رغب أن يتابعها ويقابلها بما تتناص به مع نصوص وخطابات أخرى معاصرة أو عَقَبَتْهَا لاحقاً، على ألا نفهم التناص ذلك الفهم التقليدي القائم بالإلزاماً أو قدراً بتأثر وتداخل كل ما هو لاحق بسابق، فقد يتناص نص لاحق بنص سابق دون أن يكون بينهما صلة وترابط مباشران، لا زمنياً، ولا إبداعياً، قد يتناول الشيء أو الجنس نفسه مبدعان أو كاتبان دون أن يكون لأحدهما أو كليهما علم بنص الآخر، وهذه الرؤية التي تبدو سطحية، لا يُبرهنُ على سذاجتها على مستوى أحناس أدبية متزامنة كتبت بلغة واحدة، بل على مستوى أحناس أدبية زمنية رسمت بلغتين فصاعداً، وفي أكثر من فضاء جغرافي.

3-2- مفهوم التضمين

وأما النقطة الأخرى التي نود أن ننبه عليها، فتتعلق بمفهوم التضمين نفسه، فأنت ترجع إلى مصادر أمّاتٍ أو حتى تعليمية، تُرشّد من خلالها بأن التضمين هو جعل "المتكلم في ضَمْن كلامه كلاماً أجنبياً من قرآن أو شعر، أو مثل سائر، متما له، ومنظماً في سلوكه غير مُسَمِّ قائله، لشهرته أو مُصرِّح بأنه غيره في الجملة... وهو ضربان: أحدهما ما لا يتم الكلام بدونه، ويسمى تضمين الإسناد، أي يستند المعنى في تمامه إلى الجزء المضمّن،... والثاني ما يتم الكلام بدونه، كتضمينات ابن نباتة للآيات في خطبة، كقوله: يا أيها الغفلة المطرقون، أما أنتم بهذا

الحديث مصدقون؟ مالكم منه لا تشفقون، فرب السماء والأرض إنه لحقُّ مثل ما أنكم تنطقون" (65).

3-3- تَدْأخُلُ التَّضْمِينُ بِالِاقْتِبَاسِ

وأنت ترى أن ما جاء تضميناً في النص السابق سبق أن جاء اقتباساً في النص نفسه عند الخطيب القزويني، كما مرّ بنا، وأما الكتب البلاغية التعليمية، فتفيدنا أن الاقتباس هو أن يدخل الشاعر أو الناثر في كلامه شيئاً من نصوص غيره، على وجه لا يشعر بأنه منه مع جواز التغيير في الأثر الأدبي المقتبس منه تغييراً غير مبالغ فيه، بينما التضمين هو ما يدخله الشاعر في نظمه من شعر غيره.

أثير هذا الإشكال بين التضمين والاقتباس، حتى يتحقق معي المتلقي فيما أنا فيه من خطأ أو صواب أو غوان بين ذلك، والأوضح بينهما أن الكاتب يجوز له أن يتصرف فيما يقتبس، ولا يجوز له ذلك فيما يُضمّن، والمهارة لا تكمن فيما تقتبس أو تضمن، بل في إحكام الصلة، وربط الانسجام بين نصك ونصوص غيره، ومن ثم، فإن محاسبة الكاتب على مهارته وكفاءته من عدمها في كيفية الولوج والخروج، والتخلص من تناص لا بأسرك ويستعبدك أو لى وأحقُّ من التكلف والتعسف مع المبدع إذا أشكل عليك أمر التمييز المطلق بين كون فن البديع هنا اقتباساً، وكونه في مكان آخر تضميناً.

3-4- اختلاف بلاغيين في فروع تناصيّة

ويبقى مع ذلك أمامنا فائدة حجة لوضع كل شيء في موطنه، ونسبته إلى جنسه، ولكن الذي لا نقبله أن يظلّ هذا الإشكال يسود صروحنا البيانية والنقدية اللسانية العربية، إذ بأيّ حق مثلاً أن يقتصر مفهوم التضمين على الشاعر دون الناثر عند بعض البلاغيين؟ وإذا كان تخصيص التضمين بالشعر لدى القدماء، لم يعد له مبرر لدى الحديثين، بل أصبح باطلاً منذ نزول النص القرآني فلا غرورَ إنْ أَلْفَيْنَا الخطيب القزويني يعتبر ما اقتبسه ابن نباتة من القرآن في

بعض خطبه اقتباساً، بينما اعتبره صاحب "الإكسير" تضمينات، وهنا نجد أنفسنا في احتيار من أمرنا أمام قول الإبراهيمي: "فوالذي خلق الضب والدب، وأنبت النجم والأب، وخلق النوى والحب، لقد أذكرني ضبكم بما كنت أحفظه عما قيل في الضب وعلى لسانه، وما ضرب من الأمثال المتعلقة به ما خلعت عليه أيام الصبا جددًا، ونفضت عليه ماء الشباب مداً ومددًا، لم أكن لأذكره: هل ما في نص الكاتب من ألفاظ ومعاني قرآنية تناصّ معها تناصًّا بينًا تَضْمِينٌ أم اقتباس؟ قد يترأى لك على الفور أنه اقتباس، نظرًا للتغيرات العميقة على وجه لا يُشعرُ بأنه منه، غير أن دارسًا آخر قد يعترض عليك اعتراضًا لا يعدم التدليل عليه تمامًا بأنه تضمين، ولربما واجهك دارس آخر أنه لا هذا ولا ذاك، بل تلميح، إذا ما روعي أن التلميح ليس أزيد من إشارة عابرة يشار بها إلى معنى وارد في نص آخر، دون التعرّيج على ذكره، وهذا ما يكاد ينسحب على كميات لفظية ودلالية وردت وروودًا متعاقبًا ومزدحمًا في رسالة الضب بفصولها التسعة.

ومع ذلك، حين نعود اليوم إلى بعض المصادر البلاغية القوية، تأبى إلا أن تستوقفنا، وتبعث الشك في المصطلحات أو المفاهيم التناصية التي وظّفناها في الوقوف على أجزاء من تناصات الإبراهيمي بعشرات النصوص التي ألحنا إلى أمثالات منها.

كم كنا نتمنى لو أن النقاد الفنيين، والرجال البلاغيين اقتفوا آثار بعضهم بعضاً، وسلكوا مسالك مشتركة في المفاهيم والمصطلحات انطلاقاً من لحظة التأسيس، ولا أحسب أن دارساً يعلو، مع تبجيلنا الجميع، علواً سامقاً على سيد البلاغيين ومنظرها والمحدّد لكثير من مفاهيمها خلقاً لا اختلاقاً، وإبداعاً لا إتباعاً، إنه إمام المتقدمين والمتأخرين، عبد القاهر الجرجاني (471 أو 474هـ؟).

4- مفهوم التناص عند صاحب الطراز

4-1- توضيح

سبق لنا أن ألقنا إلى نظرة عبد القاهر الجرجاني إلى مفهوم ما كان متعارفا عليه بالسرقات الأدبية، ومن أفاد بذكاء خارق مع زيادة وتوسيع من نظريات عبد القاهر صاحب الإيضاح في علوم البلاغة (القزويني) معاصر صاحب الإكسير في علم التفسير (الطوفي) إلى جانب معاصرتة صاحب الطراز (يحيى بن حمزة) الذي نريد أن نقف معه فضولاً منا في الوقوف على مفهوم التناص عنده، من خلال مَّه البلاغي الطامي الذي أذعن نواصي البلاغة العربية، وروضها ترويضاً لم تحرّن بعده حروناً، ولذلك شقّ علينا ألاّ نشير إلى مفاهيم التناص عنده، وهذا يقابله إخلال موازٍ في حق عشرات البلاغيين الآخرين ولا سيما صاحب المفتاح، وابن الأثير وغيرهما، ولو أقدمنا على ذلك لخرج هذا العمل عن دافعه الأساس، أضف إلى ذلك أن كتب البلاغة التي برزت بعد "أسرار البلاغة" لعبد القاهر قائمة على نسخ ما تقدمها بالنسبة إلى مقاصد العلوم البلاغية وجواهرها.

4-2- مفهوم السرقة الأدبية عنده (صاحب الطراز)

إن يحيى بن حمزة يعرف مفهوم السرقة الأدبية في الأشعار "أن يسبق بعض الشعراء إلى تقرير معنى من المعاني واستنباطه، ثم يأتي بعده شاعر آخر يأخذ ذلك المعنى ويكسوه عبارة أخرى" (66).

4-3- هل السرقة الأدبية من علم البديع؟

ثم يتساءل: هل تعدّ السرقة الشعرية من علم البديع أم لا؟ فكان جوابه أن الأمر فيه وجهان: أحدهما أن تكون معدودة فيه "لأنّ كل واحد من السابق واللاحق إنما يتصرف في تأليف الكلام ونظمه وترديده بين الفصيح والأفصح، والأقبح والأحسن... وثانيهما أنهما غير معدودة في علم البديع" (67)، وهو يرجح الرأي الثاني معترضاً على الذين لا يعدون "السرقات

الأدبية"، بديعا "والبرهان القاطع على ما ذكرناه هو علم البديع أمر عارض لتأليف الألفاظ وصوغها وتربيلها على هيئة تُعْجِب الناظر، وتشوّق القلب والخاطر، وهو موجود في السرقات الشعرية، فإن الشعاعين المُفْلِقَيْن يأخذ كل واحد منهما معنى صاحبه، ويصوغه على خلاف تلك الصياغة، وَيَقْلِبُهُ على قَالِبٍ آخَرَ، فإما زاد عليه، وإما نقص عنه، وكل ذلك إنما هو حوض في تأليف الكلام ونظمه" (68).

4-4- تعداده للسرقات الأدبية

ويعدّد مفهوم السرقات الأدبية بالمصطلح القديم في خمسة أنواع:

4-4-1- النوع الأول

ويسمّي التّسخ؛ وهو المصطلح نفسه الذي أشار إليه الطوفي، كأن يأخذ اللاحق لفظ ومعنى السابق.

4-4-2- النوع الثاني

ويدعوه السلخ تشبيهاً بأخذ بعض جسم المسلوخ من الشّاة، ويأتي على أوجه كثيرة، ولنا أن نتذكر المصطلح نفسه لدى الطوفي، والسلخ أنواع:

1- أن تكون السرقة مقصورة على المعنى لا غير، من غير إيراد لفظ ما سُرِق منه.

2- أن يؤخذ المعنى مع شيء يسير من اللفظ.

3- الوجه الثالث من السلخ أن يؤخذ جزء من المعنى.

4- وفي السلخ "أوجه غير هذه تركنا ذكرها للاستغناء بما ذكرنا عنها، ومن عرف ما قلناه أمكنه إدراك ما عداه من هذا النوع" (69).

4-4-3- النوع الثالث

ويطلق عليه المسخ؛ وهو نفس المصطلح الذي مرّ بنا عند معاصره صاحب الإكسير⁽⁷⁰⁾، وتعاصر الرجلين المتباينين موطنًا، لا يفيد عندنا أن أحدهما أخذ هذا المصطلح أو غيره من المصطلحات التناصية من الآخر، ولسنا هنا في مضرب يسمح لنا بتتبع تاريخ ظهور هذه المصطلحات التناصية، ولكن الأهم عندنا هنا أن هذه المفاهيم من نسخ، وسلخ، ومسخ، مفاهيم واحدة، والغريب أنّ معاصرين لهما، ربما تحاشوا ذكر مصطلح من هذه المصطلحات، مثل القرويني (661-739هـ)، مع الإشارة بأن المسخ يكمن لدى صاحب الطراز في إحالة المعنى إلى ماهو دونه "فتارة تكون صورة الشعر حسنة، فتُنقل إلى صورة قبيحة"⁽⁷¹⁾.

4-4-4- النوع الرابع

ويسميه عكس المعنى "وما هذا حاله، فهو بالغ في المجد كلّ مبلغ، ومن لطافته ورقته ورشاقته يكاد يُخرجه عن حدّ السرقة"⁽⁷²⁾؛ أي يعكس القائل اللاحق معنى من معاني السابق.

4-4-5- النوع الخامس

ويعني به أن يُؤخذَ معنى متقدم، ويُزاد عليه معنى آخر، فحين افتخر جرير ببيته المشهور:

إذا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ حَسِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمُ غَضَابَا
أخذه أبو نواس:
وليس على الله بِمُسْتَنَكِرٍ أن يَجْمَعَ الْعَالَمُ فِي وَاحِدٍ

حيث زاد عليه زيادة رشيقة، إذ بينما جعل جرير الناس كلهم محصورين في قومه بني تميم، جعل أبو نواس العالمين كلهم في واحد، فجاء ما قاله أبو نواس أبلغ وأدخل في المدح.

5- المدونة في ضوء ما جاء عند صاحب الطراز

5-1- مدونتنا لا تخلو مما عدده يحيى بن حمزة

وأنت إذا تدبرت رسالة الضب للبشير الإبراهيمي ، التي حاول أن يجاري فيها رسائل أبي العلاء المعري دون ركوب لزوم ما لا يلزم، وهو على ذلك، لو شاء، لقدير، كما وجدتها تخلو من المفاهيم التناسلية المشار إليها آنفاً، بما في ذلك الحل والعقد، لأننا لا ننكر أن يكون مرّ بنا في هذه المدونة منظوم عمل كاتبنا على نثرها عملاً لم يَقْصُرْ سَبْكُهَا عن سبك أصلها، من ذلك نصه "ومنهم من عاشر الضواري حتى ألفها، وألفته، وجمع بينهما عالم كعالم المثال عند الصوفية، فلطفت في السبع سورة السبعية، وامتدت في العربي الميزة الحيوانية"، ربما يكون من الحلّ، ومن خلال نثر معنى البيت المشهور:

عَوَى الذَّبُّ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذَّبِّ إِذْ عَوَى وَصَوَّتْ إِنْسَانٌ، فَكَدْتُ أَطِيرُ

وسواه من الأداءات الشعرية، كقول الشنفرى مثلاً:

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ سَيِّدٌ عَمَلَسٌ وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ، وَعَرْفَاءُ جَيَّالٌ⁽⁷³⁾

5-2- شمول نصنا محلولات ومعقودات

ولم تَحَوِ مدونتنا محلولات وحسب، بل شملت معقودات أيضاً، لكن هذه المعقودات البديعية لا علاقة لها بنظم صاحب المدونة جملة نثرية واحدة، مثلما هو متعارف عليه لدى بعض البلاغيين المتأخرين مثل: الخطيب القزويني، ولكنها متناصّة بشكل مباشر مع شواهد شعرية ورجزية على ألسنة بهائم، أو تناصّ الكاتب معها، فعمل على استيرادها ليقوّي بها معانيه ودعماً لها.

كل الشواهد الشعرية والرجزية التي وردت وروداً عفويّاً من قبل الكاتب، هي شواهد معقودة تناصت المدونة معها تناصّاً طبعياً بريئاً من دون أي تعسف أو تكلف، بدليل أن المتناص معها استحضرها مما كان في ذاكرته ويجري على لسانه من أشهاد، "وفي شعر أمية بن أبي الصلت المتأهل بيت في تقرير هذا المعنى، ولم أتذكر الآن ألفاظ هذا البيت"، وهذه الرسالة الرائعة مطبوعة مصحّحة فيما طبع "كامل كيلاني" مع رسالة الغفران، فإن كانت عندك فراجعها، فلعل الحافظة لم تضبط ألفاظها"،... وبحجة أنها لا تتعارض تناقضاً فيما أُدْمِجَتْ فيه.

وإذ سبق لنا أن وقفنا على جملة من هذه الشواهد فيما سلف من هذا العمل، فإننا نورد هنا مثلاً على العقد في حوار رجزي بين السمكة والضب، من نظم راجز قديم مجهول، لأن هذا يجري مجرى المثل الذي لا يعرف عادة، قائله، إلا ما قل ونذر.

قال الكاتب: "ومن فروع هذه المزايم عند العرب أكرم زعموا أن السمكة قالت لضب: وردا يا ضب، فقال الضب: أصبح قلبي صرداً لا يشتهد أن يرد إلا عراراً عرداً وملباناً برداً. فهذا هو رجز الضب وهو مبني على اعتبار صحيح، وهو أن الضب لا يشرب الماء" (74).

6- عادات تكلمية

إن الفكرة من أساسها تنطلق من عادات تكلمية عربية، ما لبثت أن دخلت تواصلاتنا العامة، بتعابير متباينة، لكن بدلالات متشابهة، تدل كلها على التعجيز أو استحالة حصول مرام من المرامات أو تلبية رغبة من الرغبات، كقول العرب: "ولا أفعله ما أن في السماء نجماً، أي ما كان في السماء نجم، وما عن في السماء نجم، أي ما عرض، وما أن في الفرات قطرة، أي ما كانت في الفرات قطرة، ولا أفعله... حتى يحجّ الضب في إثر الإبل الصادرة... ولا أفعله ما أن السماء سماء،... ولا أفعله حتى يرد الضب، والضب لا يشرب ماء أبداً" (75).

إن التراكيب السابقة التي تدور حول دلالة واحدة بإطلاقات صوتية ونحوية وصرفية وبلاغية مختلفة عقد راجز منها ما يتعلق باستغناء الضب عن شرب الماء، ولكن هذا الراجز بلغ

أَصْبَحَ قَلْبِي صَـرْدًا لَا يَشُـنُّ نَهْيَ أَنْ يَـرْدَا
إِلَّا عَـرَادًا عَـرْدًا وَحِـلِّيَانَا بَـرْدَا

ومما نحن فيه، جاء قوله تعالى على عادة العرب في خطابهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (76)، وسَمَّ الخياط، بفتح السين وكسرها وضمها، يراد به الثَّقَبُ الإبرة، وجمعه سمام، والموضع الذي يَنْفُذُ منه الخيط مَسَمٌ على وزن مَفْعَل، ومن هذا سُمِّيَتِ الثَّقَبُ التي يخرج منها العَرَقُ من باطن البدن مَسَامً لوجود خُرُوقِ خَفِيَةٍ فيها، وكما أن الجمَل لا يَنْفُذُ من ثَقَبِ الإبرة (عينها كما نقول بالعامية)، فكذلك لا يَلِجُ الجَنَّةَ الصنفُ المَشَارُ إليه في الآية، ولا يَحْطَوْنَ بفتح السماء لهم من الله عز وجلّ جزاء تكذيبهم بآيات الله واستكبارهم عنها.

الهوامش:

- (1) - الإيضاح في علوم البلاغة، ص 232 الخطيب القزويني.
- (2) - سورة النحل، الآية: 77.
- (3) - سورة القمر، الآية: 50.
- (4) - سورة الكهف، الآية: 78.
- (5) - سورة الحديد، الآية: 13.
- (6) - التعريفات، ص59 علي بن محمد بن علي الجرجاني.
- (7) - الآية المعقودة: 282 من سورة البقرة.
- (8) - الإيضاح في علوم البلاغة، ص: 237 الخطيب القزويني.
- (9) - نفسه، ص239
- (10) - وهي ما من شك من الإسرائيليات التي دُسَّت في الثقافة العربية الإسلامية.
- (11) - يراجع الإكسير في علم التفسير، ص297-307 للعلامة الطوفي سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الصرصري البغدادي (657-716هـ)
- (12) - السابق، ص299.
- (13) - سورة فصلت، الآية: 34.
- (14) - أسرار البلاغة، ص338-340 عبد القاهر الجرجاني.
- (15) - رَقَّاش، اسم يبنيه الحجازيون على الكسر في كل حال مثله مثل أي اسم على وزن "فَعَّال" لأنه معدول عن فاعلة، لا تدخله "الـ" ولا يُجمع، في حين أن أهل نجد يُجرونه مُجْرَى ما لا ينصرف مثل: قَتَّمْ، عُمَر، ويقولون:

- (28) - بهرام بن هرمز (272-275م) وبهرام من أسماء المريخ وهو يقابل "مارس" عند الرومان.
- (29) - رسائل أبي العلاء، ج3/ص550-551.
- (30) - نفسه، ص541.
- (31) - خمسة كواكب على شكل صولجان ينزلها القمر.
- (32) - كوكبان نيّران معترضان بين الشمال والجنوب.
- (33) - شهر من أشهر الصيف، والغلل حرارة العطش.
- (34) - المرجع السابق، ص574-575.
- (35) - مطبوعة ومحققة تحقيقاً جيداً في ثلاثة أجزاء.
- (36) - المرجع نفسه، ص659.
- (37) - نفسه، ج1/ص14-15.
- (38) - نفسه، ج1/ص42.
- (39) - الإكسير في علم التفسير، ص287.
- (40) - سواد إلى صفرة، أو غبرة إلى سواد قليل، أو حمرة إلى بياض، المذكر أصح، والأنثى صحماء.
- (41) - اللسان، م1/ص539.
- (42) - أي لا ترجع الحسناء إلى الشيخ كما لا يرجع القُوب (الفرخ) إلى بيضته متى قابها (فلقها).
- (43) - الكتاب، 1/436.
- (44) - يعود الضمير على الضب.
- (45) - هو الحسين بن علي بن الحسين بن محمد بن يوسف بن بحر بن المرزبان، وكنيته أبو القاسم وكان والده يكتى أيضاً أبا القاسم، وكان المشار إليه يعيش في عصر المعري.

- (46) - هي الرسالة الثانية من رسائل أبي العلاء وتسمى رسالة الإغريض (الطلع حين ينشق عنه كافوره، وقيل غير ذلك).
- (47) - لا أدري ما هو مسوغ هذه التسمية، لا الرسالة حمزية، ولا هي مجهولة العنوان.
- (48) - عدنا إلى الرسالة الأصلية (رسائل أبي العلاء، 113/1-114) لتصحيح ما ورد في حفظ الشيخ.
- (49) - في المصدر السابق، ص114، زجر (بإعجام الزاي) وهو تصحيف.
- (50) - أي الراجز المشهور رؤية بن العجاج.
- (51) - سورة البقرة، الآية: 187.
- (52) - الصحاح، 6/2395.
- (53) - القاموس المحيط، ص959.
- (54) - إصلاح المنطق، ص11، (من مقدمة المحققين).
- (55) - لأن لقب الوزارة ظلّ يميز الابن عن الأب، وهذا يمنع الالتباس بينهما.
- (56) - لكن مدية تُجمع أيضا على مُذياتٍ ومُذياتٍ، وبنو قُشير تكسر الميم في مدية، ويكون جمعها مِدَى (بكسر الميم).
- (57) - قد يُنسب البيت لأبي الأسود الدؤلي لوجوده في ديوانه.
- (58) - الرتاج: الباب العظيم، ورتّج وأرتّج الباب: أغلقه.
- (59) - كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد، ص68-69.

- (60) - يراجع المصباح المنير: ص332 وغيره من مؤلفات إعراب القرآن.
- (61) - انظر الصحاح: 3475/6، واللسان: 225/15، وأساس البلاغة: ص545، ...
- (62) - في القاموس المحيط، ص1335 أن الكشية شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه، ومنه: أطمع أخاك كشية الضب، يُخَتُّ به على المواساة، وفي الصحاح: الكشية: شحمة بطن الضب، وفي الأساس: الكشية: هي شحمة مستطيلة في جَنْبَيْهِ، وفي اللسان: الكُشْيَةُ: أصل ذنبه، وقيل: هي شحمة صفراء من أصل ذنبه حتى تبلغ إلى أصل حلقة، ... وقيل: هي شحمة مستطيلة في الجنبين من العنق إلى أصل الفخذ، ... ويقال أيضا: كُشَّة في كُشْيَةٍ.
- (63) - دهاريس ودهارس: الدواهي.
- (64) - قارن نص البشير بما ورد في أساس البلاغة، ص545.
- (65) - الإكسير في علم التفسير، ص287.
- (66) - الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ص188.
- (67) - نفسه، ص189.
- (68) - نفسه، ص189-190.
- (69) - الطراز، 3/195.
- (70) - الطوفي ولد سنة 657هـ وتوفي سنة 716هـ - بينما ولد يحيى بن حمزة سنة 669هـ وتوفي عام 749هـ

- (71) - نفسه، ص196، تحاشينا إيراد الامثلة والشواهد قصداً، لأن حديثنا هنا حديث غَرَضِيٍّ لموازنة ما جاء في رسالة الضب من تناصات للإبراهيمي ليس إلا.
- (72) - نفسه، ص198.
- (73) - سيد: أسد أو ذئب، عملّس (أو عمرّس): كل ما كان شرساً قويا من الحيوانات، أو حتى القوي الشديد من الرجال، الأرقط: النمر، زهلول: أمّلس، عرفاء جيال: اسمان للضبع، وعرفاء معناها كثيرة الشعر.
- (74) - تعمدت نقل هذا النص مشوشاً دون فصل ما هو نثر عما هو رجز، ليأخذ القارئ فكرة عن الإهمال الملحوظ.
- (75) - إصلاح المنطق، ص393-394 لابن السكيت.
- (76) - سورة الأعراف، الآية: 40.

مصادر البحث:

- 1- أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ودار المدني، جدة، 1991.
- 2- إصلاح المنطق: ابن السكيت، تحقيق: شاكر وهارون، دار المعارف، مصر.
- 3- الإكسير في علم التفسير: الصوفي سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الصرصري البغدادي، تحقيق: د. عبد القادر حسين، المطبعة النموذجية، القاهرة.
- 4- الإيضاح في علوم البلاغة: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

- 5- التعريفات على بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق: عادل أنور خضر، دار المعرفة، بيروت، 2007.
- 6- الجمل في النحو: الخليل بن أحمد، تحقيق: د. فخر الدين قباوة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985.
- 7- ديوان الأحوص الأنصاري، تحقيق: عادل سليمان جمال، الدكتور شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، 1970.
- 8- رسائل أبي العلاء المعري: تحقيق: د. عبد الكريم خليفة، منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر، 1976.
- 9- الصحاح: الجوهري، تحقيق: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1984.
- 10- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة، مطبعة المقتطف، مصر، 1914.
- 11- القاموس المحيط: الفيروز أبادي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- 12- الكتاب: سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، دار القلم، القاهرة، 1966.
- 13- لسان العرب: ابن منظور، دار صادر بيروت، ط3، 1994.
- 14- المصباح المنير: الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

